

البهلوان وإبريق الشاي



رمضان مصطفى سليمان

في آخر خيوط النهار، حين كانت الشمس تتوارى خجلة خلف الأشجار، كان البائع المتجول يسير بخطوات متعبة عائداً إلى بيته الصغير . كان يحمل على ظهره صندوقاً خشبياً امتلأ بأشياء اشتراها لبيعها في اليوم التالي ، بينما امتلأ قلبه بتعب الأيام وقلة الحيلة. لم يكن يملك سوى الأمل... ذلك الأمل البسيط الذي يضيء قلب الفقراء حين تظلم الدنيا في وجوههم .

لكن ذلك المساء الشاحب لم يكن عادياً.

حين وضع صندوقه الممتلئ أرضاً وفتحته، لمح شيئاً لم يألفه من قبل. إبريق شاي نحاسي بريق ، لامع، بديع الصنع، كأنه خرج من حكاية قديمة أو من قصر ملكي. حدّق فيه طويلاً، وقلبه يتساءل :

" من أين جاء هذا ؟ أنا لم أشتري إبريقاً " ...

راح يقلب ذاكرته المتعبة، يبحث عن لحظة قد تفسر هذا اللغز. ولم يجد سوى صورة واحدة عالقة في ذهنه: ضفدعة صغيرة في الغابة السوداء ، كانت تصارع الموت ، بلا أمل في النجاة .

كان ذلك في طريق عودته. سمع صوتاً خافتاً يشبه الاستغاثة. اقترب، فوجد ضفدعة صغيرة ، إحدى ساقيه عالقة بين حجارة قاسية. كانت تحاول التحرر، لكنها تفشل في كل مرة ، كأن الأرض تمسك بها ولا تريد لها النجاة.

لم يفكر كثيراً في المر . انحنى، وأزاح الحجارة برفق و هدوء، حتى تحررت الضفدعة أخيراً . قفزت بعيداً، ثم توقفت لحظة كأنها تنظر إليه... وكأن في عينيها شكراً لا يُقال ، شكر على النجاة .

أما هو، فتابع طريقه دون أن ينتظر مقابلاً. لم يرَ في فعله بطولة، بل رأى فيه شيئاً عادياً... إنقاذ كائن ضعيف من الموت، لا أكثر.

لكنه لم يكن يعلم أن بعض الأفعال الصغيرة، في ميزان الحياة، عظيمة جداً.

لم تكن تلك الضفدعة كغيرها من الضفادع. كانت تملك قدرة غريبة، قدرة على التحول إل أي شيء، كأنها تحمل سراً من أسرار الطبيعة. وحين أنقذها البائع، شعرت أن عليه ديناً من المعروف لا يُرد بالكلمات ، بل بفعل الخير له .

فكرت... ثم قررت.

تحولت إلى إبريق شاي نحاسي جميل المنظر، ووضعت نفسها في صندوق البائع المتجول ، هدية صغيرة صامتة، تحمل في داخلها امتناناً كبيراً ، و شكراً عظيماً. لهذا الانسان الطيب القلب .

عاد البائع إلى واقعه، وهو ينظر إلى الإبريق في حيرة. قال في نفسه :
" هذا ليس لي... وإن استخدمته، ربما اتهمني الناس بالسرقة " ...

كان فقيراً، لكنه كان نظيف القلب ، صحو الضمير. لم تغره قيمة الإبريق، بل أفلقتة مسؤوليته. وبعد تفكير طويل، قرر أن يفعل ما يراه صواباً: أن يسلمه إلى متحف المدينة، ليكون ملكاً للجميع.

وهنا تبدأ حكاية أخرى... حكاية الضمير ، الضمير الانساني الذي لا يقبل شيئاً ليس له .

استقبل مدير المتحف الإبريق بإعجاب شديد. قلبه امتلأ رغبة في امتلاكه . قال لنفسه في طمع و جشع :

" لن يلاحظ أحد... والقطعة أجمل في بيتي منها في المتحف "

أخذه إلى منزله، متجاهلاً صوتاً خافتاً في داخله يقول : " هذا ليس لك "

ذلك الصوت... هو الضمير الحي . لكنه أحياناً يُهمل، وأحياناً يُقمع، حتى يظن الإنسان أنه اختفى ، و أنه في مأمن من ضميره .

قرر المدير أن يقيم حفلة شاي ، يدعو إليها وجهاء و أكابر المدينة ليتباهى بالإبريق. أراد إعجابهم، أراد كلمات المديح، أراد أن يبدو مميزاً.

لكن الإبريق السحري ... لم يكن صامتاً كما ظن.

في وسط الحفلة، ارتفع الإبريق فجأة في الهواء، كأن قوة خفية تحمله. ارتجف الحاضرون رعباً، وتجمدت الابتسامات على وجوههم هلعاً .

ثم... اندفع الشاي الساخن منه، يتطاير في كل اتجاه!

صرخ الضيوف من هول المفاجأة ، تراجعوا إلى الوراء، وركضوا نحو الأبواب المغلقة. تحولت الحفلة إلى فوضى عارمة، وتحول الإعجاب إلى خوف.

أما المدير، فوقف مذهولاً... ثم فهم.

فهم أن بعض الأشياء لا تُؤخذ ظلماً دون ثمن.

في اليوم التالي، بحث عن البائع المتجول حتى وجده. أعاد إليه الإبريق، وقال بصوت منخفض :

" هذا ليس لي... ولم يكن لي يوماً "

لم يكن الاعتراف سهلاً عليه، لكنه كان ضرورياً لإراحة ضميره . فالخطأ حين يُعترف به، يتحول إلى درس... لا إلى وصمة.

عاد البائع بالإبريق، لكن الحيرة عادت معه. وفي تلك الليلة، حدث ما لم يتوقعه.

استيقظ على صوت غريب... صوت ينبعث من الإبريق!

قصّ عليه الإبريق حكايته، من الضفدعة إلى التحول، إلى ما حدث في بيت المدير. ثم قال له :

"لقد كافأتك لأنك أحسنت دون انتظار مقابل. والآن، دعني أساعدك أكثر."
اقترح عليه فكرة بسيطة، لكنها مختلفة :
أن يقيم عرضاً صغيراً، مسرحاً متواضعاً، يؤدي فيه الإبريق حركات بهلوانية
مدهشة.

تردد البائع في البداية، لكنه وافق.
بدأ العرض المسرحي في الشارع .
إبريق يتحرك بخفة، يقفز في الهواء، يدور ، كأنه كائن حي ، . الناس
تجمهروا حول البائع و أبريقه ، ضحكوا بأصوات عالية ، اندهشوا. الأطفال صفقوا
عجبا، والكبار نسوا همومهم للحظات.
تحول البائع من فقير متعب إلى صاحب مشروع صغير. صار يكسب المال،
لكن الأهم... صار يكسب احترام الناس.
ومع مرور الوقت، حدث أمر جميل.
لم يطمع البائع. لم يطلب المزيد بلا نهاية. حين شعر أن ما جمعه يكفيه في
معيشته ، توقف. فتح دكاناً بسيطاً يبيع فيه ما يحتاجه الناس ، واستقر.
أما الضفدعة، فقد شعرت أنها أدت رسالتها. عادت إلى الغابة، حيث تنتمي،
تاركة خلفها حكاية.

ليست الحكاية عن إبريق شاي فقط.
هي عن قيمة صغيرة... اسمها الإحسان . عن فعل بسيط... قد يغير حياة
كاملة. عن ضمير... قد يُسكت، لكنه لا يموت. وعن إنسان... اختار القناعة، فربح
أكثر مما ظن.

في حياتنا اليومية، نمر بمواقف تشبه تلك اللحظة في الغابة. نرى محتاجاً، أو
ضعيفاً، أو موقفاً يحتاج تدخلاً. وقد نظن أن ما سنفعله صغير... لا يُذكر.

لكن الحقيقة التربوية العميقة تقول :
الأفعال الصغيرة تصنع شخصيتنا، وتبني مجتمعنا.
فالبائع لم يُنقذ الضفدعة ليكسب مالاً. والضفدعة لم تكافئه لتُظهر قدرتها.
لكن الخير... حين يُزرع بصدق، يعود بأشكال لا نتوقعها.

أما مدير المتحف، فقد قدم مثلاً واقعياً نراه كثيراً بيننا يومياً :
حين يبرر الإنسان خطأه لنفسه، يبدأ طريق الانحدار.
لكن العودة ممكنة... دائماً ممكنة.

رسالة الحكاية

كن بسيطاً في خيرك. واضحاً في ضميرك. قنوعاً في طموحك.

ولا تنسَ أن العالم، رغم قسوته أحياناً، ما زال يحتفظ بمساحة للخير و
العطاء...

حيث يمكن لضدعة صغيرة أن تصبح إبريقاً، ولفعل صغير أن يصنع حياة
جديدة للناس .

وهكذا، تنتهي الحكاية... لكن أثرها، ربما يبدأ الآن.